جدلية الأنا والآخر
في لامية العرب للشنفرى

دكتورة
أسماء شمس الدين
مدرس الأدب العربي
كلية الآداب جامعة دمنهور

مُقَدِّمَة

لماذا العودة إلى الحقبة الجاهليّة ؟ ولِمَ اخترتُ اللاميةَ ؟

ثمة أسباب أقنعتني بالتوقف مع اللامية ؛ منها أن اللامية من العلامات الأدبية في البدايات ، وفي البدايات تكمن بواعث الانطلاق ، وأقدر أن العصر الجاهلي هو المورد الذي يبدأ تاريخنا العربي منه ؛ أعني تاريخ الثقافة العربية في معناها الأوسع ، و أُقدر أن في العودة إلي المناهل الأولي شيئًا من الحنين لعله يتقاسم ملامحه على نحو عميق مع المشهد الطللي للشاعر القديم ، ووجه الشبه ليس بكائيًا لكنه تأمليًا ؛ فهو في العمق إدراك للتاريخ والواقع أو قل الوجود .

والأعمال الفنية العظيمة كانت موضوعات مغريةً بالدراسة وستظل ، ولعل في تعدد الدراسات التي اهتمت باللامية نوعًا من البرهان لا علي غناها فحسب بل اعتراف بأنها لم تستنفد ظلالها بعد [1] .

وتأسيسًا علي هذا أقول ما من فن أصيل تستنفده الدراسات ؛ أي أنه في العمل الفني التراثي من الغني وتعدد الأبعاد والدلالات ما يتأبّى علي التأطير ، فهو

وغيره من الأعمال من نفس المستوى المتميز ــ يمتلك سرًا داخليًا دائم الألق والوهج ، وقدر ما نقترب منه قدر ما يبدو نائيًا وآسرًا، إنه في هذا المستوى يشبه فكرة الحقيقة المطلقة التي لا ندعي أبدًا الإحاطة بها أو القبض عليها ، وأزعم أن فضيلة البحث تكمن في السعي والتواصل المتواصل نحو الحقيقة أو قل وفق هذا التصور الاقتراب منها.

ويجدر القول بأنه على صعيد دراسة اللامية فللدراسات على وفرتها- بدءًا من الشروح و الدراسات البلاغية وانتهاءً بالدراسات اللغوية- لم تكن قاصرة . ولكنا نخطئ إذ نظن أن بُعدا واحدًا- مهما كان أصيلاً - يمكن أن يستنفد عملاً عظيمًا مثل اللامية . ولا معاظمة هنا باللامية في غير موقعها، ولكن الأمر أن صاحب اللامية ذات مبدعة مستقلة من جهة ، وحاملة لثقافة مجتمعها من جهة أخرى ؛ بمعنى أنه نتاج ذلك المجتمع الجاهلي على صعيد اللغة والقيم والشعور الفردي ، والشعور الجمعي . ولكنه من جهة ثانية ــ وفى الآن نفسه ــ خارج المجتمع الجاهلي بوصفه ذاتًا مبدعة لأنه انزاح- قربًا أو بعدًا- عن الهياكل الجاهزة لذلك العصر. وهو بَعدُ فنان يتوتر على منحنيات الانفلات والائتلاف للحدوس الفنية ؛ لذا فصاحب اللامية - مثل غيره من المبدعين- لا يعبر عن ثقافة العرب في الجاهلية فحسب ، بل يعبر عنها في أرفع مستوياتها ، وإلا ما عُدت في نسبتها إلى العرب لو لم تقترب قربًا جمًّا من حياتهم وقيمهم .

وتعتمد دراستي للامية علي عدد من الافتراضات منها :

ــ الفن العظيم الوجه الآخر للفكر العظيم ؛ فإبداع الفنان الشاعر تعبير عن ثقافة أمة ، وتأسيسًا على هذا فإن اللامية ــ بقصد أو بغير قصد ــ عبَّرت عن أعمق مكونات هذه الأمة ومكنوناتها .

ــ الفن والحضارة سبيلان لتحقيق غايات جمالية واجتماعية ؛ لعل من أهمها تحرير الإنسان من القبح والوحشية والجور، وهذا ما ترفعه لامية الشنفرى بوضوح

، وهو الأمر الذي يكشف عن نضج العقلية العربية قبيل ظهور الإسلام ، ولولا ذلك لما استطاع العرب تقبل الدين الجديد [٢] .

– في اللامية صوت الفرد/ الأنا مسيطر في الغالب ، ولكنا لا نعدم صوت الجماعة / الآخر على الصعيد الموازى .

– الصورة في اللامية بمثابة مشهد جمالي فكري لاكتشاف الوشائج بين الأشياء ،وأصالتها في أنها وليدة البيئة ومتشحة بنسيجها .

– في اللامية ــ مثل غيرها من القصائد ــ يلجأ الشاعر إلى استغلال طاقات اللغة التعبيرية والتصويرية بوصفها أداة رئيسة تعتمدها القصيدة ؛ فتقوم اللغة الشعرية على العلاقة بين الكلمات ، وليس على المعنى الوضعي للكلمات منفصلة ؛ وخصوصيتها من خصوصية السياق النفسي والفكري لشاعرها ومكنته الشعرية ومكانة ملكته الإبداعية .

– نتعامل مع نص اللامية على أنه ثابت ــ شكلاً على الأقل ــ إلا أنه متحول مضمونًا ، كما أن القارئ متحول مرحليًّا وزمنيًّا ، فالإنسان هو الكائن الذي يوجَد للمعنى ويوجد به ؛ بمعنى أن حقيقة الإنسان تكمن في وجوده للقيمة ؛ والوجود من أجل القيمة في عالم العربي [٣] كان يعني نوعًا من البطولة ، والشنفرى في لاميته وكل بطل يحدثنا عنه التاريخ ما هما إلا تجسيد للجماعة وحاجاتها الوجودية ومثلها العليا ، فالوعي الشعري العربي كان يتحرى إنسانية الإنسان في ذاته وفى الآخر ؛ ومن ثم فهو يتعالق مع ما نصطلح على تسميته بالثقافة أو الحضارة في معناها الفلسفي [٤]

– يعبر الشاعر الأصيل ــ بوعي أو بلا وعي ــ عن وجدان شعبه ، وعن حدوس ذلك الشعب في مرحلته التاريخية ، كما أنه يطلق أحلامه ورؤاه باتجاه المستقبل خارج قيود الواقع ؛ فتتبدى عبر تلك الأحلام والرؤى صورة الأنا / الآخر الآنية ، والمُتَطَلَّع إليها كذلك ، وهو بذلك التعبير يحقق على نحو ما تواصلاً إنسيًا مع الأجيال اللاحقة ، ومع ثقافات الشعوب الأخرى [٥] ؛ وهذا لا يعنى تعليل الشعر

أو تعليقه بعوامل خارجية بحيث يتحول الشاعر إلى صدى أو انعكاس ، ولكنه يعني أن الشاعر المبدع هو من يقبض شعريًا على ضمير شعبه .

وفى عجالة أُلمح إلى بعض الحدوس الكبرى في اللامية قُربًا وبُعدًا من السياق الثقافي الشعري المعتمد آنذاك وهو المتمثل في المعلقات ، ومنها :

1- مفهوم الزمن:

وأهدف إلى تصور التصور العربي للزمن ؛ أي إيقاع الزمن في اللامية وأتوسل إلى ذلك برصد الزمن في المعلقات واللامية – وهما تحديدًا لأنهما من علامات التراث الجاهلي كما أشرت آنفًا – فنجد المعلقات تتخذ الماضي منطلقًا للتعامل مع أمرين :

- الموقف من الماضي
- تقييم الحاضر بغية الاتجاه نحو المستقبل.

و فكرة الماضي في أحد أبعادها تكشف عن الرؤيا الفردية ؛ وعن الماضي بالنسبة للمعلقات : ماضي امرئ القيس حطام وخراب ، وهذا الفهم يتردد في المعلقات اللاحقة ، و امرؤ القيس يرصد لحظة الرحيل دون أن يتابع رحلة الظعائن ؛ في حين يصور من تلاه – طرفة وزهير ولبيد – رحلة الظعائن الآمنة ، وفي ذلك تقدم إلى الأمام فكريًا ، بينما نجد عمرو بن كلثوم يمجد الماضي متدرعًا به في مواجهة الحاضر ، فالماضي عنده ليس خرابًا وحطامًا قدر ما هو تكئة يستمد منه القوة والشرعية ، والأمر لدى عنترة يبدو مضطربًا وهو– من دون شك – يرتبط بأزمته الفردية [٦] . والخلاصة أن شاعر المعلقة يعي الماضي بوصفه ماضيًا ؛ ولكنه يدعو لاستمرار الماضي في الحاضر والمستقبل .

وعن الماضي لدى الشنفرى فهو يحزم الأمر بأن البقاء لا يفيد ؛ ولذلك يغادر الماضي والمكان في محاولة الانفلات من الزمن الدائري الجماعي [٧] – الذي

يتصل فيه الماضي بالحاضر بالمستقبل على نحو من القبول والتواصل من الشاعر القبلي ــ إلى الزمن التعاقبي الفردي ــ الذي يرتبط فيه الحاضر بالمستقبل وينقطع عن الماضي المرفوض المُتَمَرَّد عليه من الشاعر الصعلوك ــ ناشدًا حياة مستقرة في الحاضر والمستقبل تنبني الحروب والضغائن والظلم والشرور فيها ؛ فيطمح إلى حياة يسودها منطق أخلاقي يستمد مشروعيته من قيم إنسانية عادلة ، ويتقمص المواجهة مدافعًا عن حقه في أن يعترف المجتمع به وبحقه من العدالة الاجتماعية اعترافًا كاملاً غير منقوص. إنه يقدم لنا وجهًا من وجوه كفاح الفرد لتأكيد ذاته في مجتمع يرفض الاعتراف بحقوقه في العدل والمساواة فيطرده ؛ ولذلك جاء قرار الرحيل حلمًا ورؤيا ؛ حلم لأنه يبتغي تجاوز يباس الحاضر ويأسه وجوره ، ورؤيا لأنه يتنبأ بعالم جديد آمن خصب. فالشنفرى وغيره من الشعراء يصنعون قدرهم ويمجدون الحياة والبقاء والعدالة .

هذه ــ إلى حد ما ــ الخطوط العامة للزمن في آناته (الماضي– الحاضر– المستقبل) في المعلقات واللامية ؛ فغالبية الشعراء – أو بعضهم على الأقل– قد أدرك الزمن بصفته وجدانًا[٨] ، وبكلمات أخرى أدرك الزمان المجرد المتضمن للوجود ، والزمن النفسي الذي يستغرق تجربته . إن مَطالع المعلقات واللامية ، وحديث الرحلة ما هو إلا محاولة من جانب الشعراء لاختراق الزمنْ الواقعي و محاولة تشكيله علي أسس نفسية. وفي ذلك كله تحقق المعلقات واللامية مستويات للوعي بالزمن ؛ ومن ثم فإن خطاباتها تبقى في الفن دون أن تسقط في التاريخ أو التجريد .

2ــ كثافة الأفعال :

تبدو اللامية معرضًا للأفعال ، وكثافة الفعل في اللامية سبيل من سبل الوصول إلى طبيعة الشخصية العربية في العصر الجاهلي ، فتَمثُّل الشخصية في الأفعال يدل بوضوح على الإرادة ، ومن هنا ندرك دلالة اتكاء المعلقات و اللامية علي الأفعال

في مطالع الجُمَلِ ، فللجملة الشعرية تبدو في الشعر الجاهلي وكأنها تقوم على الفعل بكل فاعليته وحسيته .

3ـ تجليات المكان :

لا يحتاج المُطَالِع إلى عظيم جهد ليتقرر لديه كثافة ذكر الأماكن في المعلقات ؛ من جبال ، ومرابع ، ومصائف ، ومشاتي ...إلخ ، ولكأن الأمر بات ولعًا مشتركًا بالمكان ، و المكان يمثل مسرح النشاط الفردي والجماعي علي حد سواء الأنا / الآخر ، ولا ينفصل المكان عن التاريخ ، ولذا نعده سجلاً للتجربة الإنسانية في الزمن الجاهلي ، ثم إن المكان في أحد مستوياته يمثل الطبيعة بشقيّها الصامت والحيّ ، و باعتبار ذلك فالمكان مظهر من مظاهر صراع الإنسان أو تآلفه مع الطبيعة بشقيها الباني والهادم ؛ فالحيوان ، والنبات ، والمطر، والجفاف كلها مشاهد لعلاقة الطبيعة بالإنسان الجاهلي وفاعليته .

ويبرز المكان (الجبل) في نص الصعاليك عمومًا بصورة مغايرة لبروزه في النص القبلي (الصحراء) ؛ فالمكان في المعلقات مبعث الذكريات ومهد الحسّ ومسرح النشاط ؛ في حين أنه لدى الشاعر الصعلوك يبدو مشهدًا شاهدًا على فاعلية الأنا وحلمه ورؤاه ، وانفلاته عن زمن الآخر ومكانه وقوانينه ، فالمكان المنشود تتحقق فيه الذات المؤتلفة مع الآخر، حتى وإن كان هذا الآخر من غير البشر .

هذه المعاني تبدو جلية في اللامية ، فالمكان / الحُلم في النص القبلي هو الأطلال ؛ وهى تجسيد للزمن الماضي والدمار ؛ والمكان / الحُلم في نص الشنفرى الصعلوك هو الرؤيا ؛ وهى رؤيا وجهة الرؤية فيها إمكانية استشراف المستقبل وبناء عالم جديد ، وبذلك " يكون المكان الواقعي في نص الصعلكة تجسيدًا للانفصام الحاد بين الذات الفردية والذات الجماعية ...إلخ " [٩] ، ولكنه الانفصام لتتم الولادة [١٠] ، إنه الانعتاق لأجل الانتماء إلى القيمة بجوهريتها [١١]

والمُلاحظ أن المكان- في اللامية- يتجاوز حدوده الحسّية إلى موقف الجاهلي الصعلوك من العَالَم . في اللامية يكون السيد العملس والأرقط الزهلول والعرفاء الجيأل والأراوى بديلاً للأناس الذين ترَّحل الشاعر عنهم ، ولعلنا نلحظ أن الشاعر تخير البديل لقومه من الحيوان بل انتقى البرى من الحيوان إمعانًا في إبراز معاناته ، وفي جميع المشاهد نجد الحيوانات هي مبعث الأمن ووجه الدلالة عليه في الآن نفسه . إن تمجيد الطبيعة الحيَّة هنا ينطوي على حرص شديد على الحياة من جهة ، وعلى احترام الطبيعة ومحبتها ، وتذوق مكوناتها من جهة ثانية ؛ مما يعكس ــ في بُعد من الأبعاد ــ الموقف الحميم من الطبيعة في الشعر العربي الجاهلي .

4 ــ آفاق الإدراك الفكري الجاهلي :

تقدم المعلقات و اللامية دلالات ثمينة تمكننا بقدر من معرفة حدود التفكير العربي الجاهلي فيما يخص إدراك المثال والمحسوس ، كما تسهم بقدر كبير في دفع الاتهام عن ذلك التفكير بأنه بقي علي تخوم المحسوس ، ولقد أُمثّل على ذلك ؛ بجواد امرئ القيس فهو يتسامى حتى يصبح مثالاً ، وناقة طرفة ليست ناقة بعينها في الواقع ، إنها ناقة مثالية شعرية ؛ أو قل : إنها تلك الناقة الموجودة في النوق كلها دون أن تنطبق على واحدة منها بعينها ، والشاعر الأول بذلك يكون قد قبض عل ى الكلي النموذج وطرحه عبر الجزئي المحسوس ، وهذه سمة أصيلة من سمات الفن الرفيع ، أعني المُكنة في التعبير عن الكلي بالمحسوس . وهذا هو الفرق الفارق بين الفلسفة والفن بصورة عامة

وسنجد مثالاً آخر في لامية الشنفرى ، وهو الذئب المثال والذي من خلاله يطرح الشنفرى مفهوم السلوك الأخلاقي المثال ؛ فهو على نحو ما يعنى اقتراح شكل من أشكال المساواة أمام السؤال الأخلاقي ، أو أمام الحاكم الأخلاقي في ميدان السلوك ، والشنفرى مُطبقًا على نفسه يرى أن قيمة الفرد تتحدد بمدى حيازته

للأخلاق النبيلة المتحققة منه فعلاً لا بمدى عَراقة أرومته ، وهو ما يفتقده الشنفرى الصعلوك واقعًا ، فاللامية تُعِدُّ فردًا منسجمًا مع الآخر ، وتطرح حُكمًا أخلاقيًا يتجاوز المرحلة غير مشروط بمكان معين أو زمان محدد ، فأدوات الزعامة والخلود لدى الشنفرى قِيمية وليست عِرقية .

والمؤكد أن ما من شيء مجاني في العمل الفني . إن نظام الإشارات الكلامية الفنية ينطوي- في القصيدة - على مخزونات فردية.وجماعية لا يطفو سو ى القليل منها . وهناك تفاصيل ثَرَّة يمكن الذهاب معها بعيدًا إلا أنني اكتفيت بالإشارة إل ى أهمها فيما قدرت .

5 ــ الكيان بين الأنا والآخر :

أقدر أن القارئ يستطيع أن يكتشف بسهولة أن تلك اللامية سجل لذات شاعرها الشنفرى في مواقفه من الجماعة (الصعـــاليك) أولاً ، ثم من العَالم (القبيلة) ثانيًا . إن محور الفرد والجماعة من المحاور المعقدة في الشعر الجاهلي عامة وفي اللامية خاصة . فالشنفرى يواجه عالمه بوصفه فارس البطولة ([١٢]) والأخلاق ؛ إذ لا يتجرأ الآخرون ــ على حد قوله ــ على مقارعته ، وفى الوقت نفسه يواجه أزمته الحادة المزدوجة ؛ فهو من جانب يرغب بقوة في الاندماج بجماعته ، ولكنه من جانب آخر لا يستطيع خيانة ذاته وقِيمه التي يراها مشروعة. ولذلك فهو يرحل سعيًا وراء مجتمع مستقر آمن وفاضل في آنٍ واحد ، أو قُل هو فرد في ذروة جماعة ، ومعضلته ــ وغيره من أصحاب النفوس الحرة في كل الأزمنة والأمكنة ــ أنه يخوض معركته الذاتية للحفاظ على فرديته وعلى جماعيته معًا ، وتجاهد ذاته في سبيل الإثبات الذي يلاقي النفي حال تحققه ؛ فنحن مع شاعر يطرح (تراجيديا) شعور الفرد بالتفوق والاستقلالية والاستحقاق ، وفي الوقت نفسه يطرح شعوره

الموازى المطروح عليه من الآخر وهو الطرد والدونية ، وهو بين القبضتين في محاولة من الانفلات لتحقيق عالَم متوازن ، ولذلك يقدم الشنفرى بيانًا (كشفًا) بأخلاقه وسلوكياته التي تؤهله لعالَم قيمي جديد .

ولا بد من القول الصريح بأن اللامية مجّدت الأخلاق العربية السائدة بصورة عامة ، و قد افتخر الشنفرى بأنه يتمتع بأخلاق السَّادة بلا نقصان . بما ي عني أن اللامية ليست شعر رفض، أو ثورة ؛ إنها في العمق تمثل وعي العروبة في العصر الجاهلي ، وتمثل قيم السلطة ولذلك تبنتها العرب و نسبتها لنفسها ، ولذلك فاللامية قد نعدها من قبيل الفن الرفيع فاضت بعيدًا خارج حدود السلطة القبلية في العصر الجاهلي .

لا أقول إنني وقفتُ على الآفاق المعنيّة في اللامية ، ولكنني على الأقل حاولت الاقتراب ، و إنني أدرك أن دراستي هذه خسرت الكثير لأنها لم تقدم البرهان الفني دائمًا ، أي الوصول إلى المعاني الأخيرة عبر الكلام الشعري ، ولكن عزائي أن دراسة واحدة لا تستطيع أن تغطي الجوانب كلها مهما كانت الدراسة مسئولة وجادة . لقد قدمت دراسة موسعة- نسبيًا- عن لامية الشنفرى في محاولة ل قراءة إضافية للامية ، ولا أستطيع الادّعاء بأنني حققت ما أريد ، إلا أن الأمر الأكيد هو أنني أجد في اللامية جديدًا كلما أعدت قراءتها ، إن الغاية تستحق الجهد ومن ثَم أقدم هذا العمل أملاً أن يجئ على الطريق القويم .